لقيط

وفي بيت الدكتور محسن جلست فاتن على طرف السرير تنتظر بقلـق بـائس انصراف الضيف وعودة محسن.. لقد زالت نشوة الأحلام من عينيها وبانت لها حقيقة الحب الذي يعيش في الظلام.. وقع الأقدام العابرة، رنين جرس الباب أو التلفون، كل حركة ونأمة تحمل إلى قلبها مخاوف تعسة بقرب الفضيحة..

وعولت على أن تفاتحه بموضوع الزواج.. فما كاد يضمها إليه بعد انـصراف سليم ويحاول نهب شفتيها حتى أفلتت منه وقالت:

- دعنا نتحدث يا محسن.. إنني لا أستطيع الإستمرار على هذه الحال..

وابتسم ساخرا وقد حدس ما تريد وأردفت قائلة:

- لم يعد من مانع لزواجنا.. لقد انتهى كل ما يربطني بزوجي...

وتجهم وجه الدكتور محسن قليلا وقال:

- متى وعدتك بالزواج؟.. إنني لا أتخلى عن استقلالي!..

وثارت أعصاب فاتن وارتجفت شفتاها توترا وانفعالا:

- ماذا إذن؟.. إن القلق والخوف يسممان نشوة حبي.. أخاف أهلـي، أخـاف الجيران، أخاف صديقاتي، أخاف من الناس جميعا.. إنني أتعذب وليس بعد العذاب سوى الفضيحة!..

واستلقى محسن على السرير وقال دون مبالاة:

- إنني لم أغرر بك.. إنك امرأة متزوجة وتعرفين نتائج الأمور.. وتعلمـين ماذا يعني اقتحام بيت شاب أعزب في الليل.

وانحنت فوقه ولمست خده وقالت وهي تسبل عينيها بالماء:

- ألن تتزوجني؟..

وأجابها بلهجة خالية من العاطفة:

- لا تطمعي أن تعكري هدوء سكينتي.. يجب أن تعرفي نفسك.. عابرة لا قيد يربطني بك.. نزهة قصيرة بيننا.. كأس نشربها وننتـشي لحظـات.. ألا يعجبك هذا؟..

وضمّت رأسه بعنف تحاول أن تلين قلبه الصخري:

- لا تقل هذا إنه رهيب.. اصفعني!.. دسني بقدمك ولكن لا تقـل لـي لـن أتزوجك.. إنني أنتحر إن لم تتزوجني!..

- لماذا تتحدثين كالفتيات المراهقات؟..

وانهمرت دموعها دون أن تجيب فأردف بضيق:

- هل بدأنا بخلق المتاعب؟..

- متاعب؟.. إن كنت تحبني فلم لا تتزوجني؟.. ماذا يمنعك أن تتزوجنـي؟.. إلى متى أبقى هكذا؟..

- إن لي فلسفتي الخاصة بالزواج.. إنها تختلف عـن رأي الرجـال ولكنهـا تناسبني..

- ولكنها لا يمكن أن تناسبني بحال.. إنني لن أعرف الهدوء دون زواج..

ولانت لهجته قليلا وابتسم بتهكم:

- مم تخافين؟.. إنك لا تعرفين نفسك.. أنت تقفزين من طبقة إلى طبقة.. من طبقة تحكمها القيم ولا تملك الحرية، إلى طبقة تخلق القيم وتملك كل أنواع الحرية، ومع ذلك فلا تزال لديك رواسبك القديمة، ومفهومك البـالي مـن الأخلاق والخوف من الفضيحة..

- ماذا تقول؟.. إنني لا أفهم ما تقول!

وضحك وقد أدرك أنه يتحدث بما هو فوق مستوى مداركها :

- أعرف أنك لا تفهمين.. لقد حكم عليك باللاوعي الأبدي.. وحـين تفهمـين تفقدين نصف أنوثتك.. لن تكوني حينذاك أنثى نقيـة بـل نـصفك امـرأة ونصفك رجل..

وغاظها أن يهزأ بها فهتفت مغضبة:

- ماذا تقول؟.. لم تهزأ بي؟.. لم تبعدني عن موضوع حديثي؟..

- إنني أتحدث بالموضوع ولم أخرج عنه أبدا.. إن والدك الذي تخـشينه قـد تحرر من طبقته القديمة فلم لا تتحررين أنت؟..

- ماذا تعني؟..

- أعني أنه منذ بضعة أعوام كان تاجر طحين صغير، ثم أصبح يملك مطحنة ثم شركة مطاحن كبيرة، ويشغل مئات العمال ويبني العمارات، ثم مساهما في شركات الغير.. هل كان يصبح ثريا لو أنه التزم مفهوم الشرف عند الطبقة الوسطى؟.. لو أنه لم يخلط القمح بالزوان؟.. ولم يزور الحسابات ولم ينهب العمال والمساهمين؟..

- أتريد أن تهينني؟..

- بالعكس إن هذا يدل على أنه مؤهل ليكون في طبقة الممتازين..

واشتعلت عيناها السوداوان غيظا وهتفت:

- لا تخرجني عن طوري!.. تحدث حديثا معقولا.. أخبرني إذا كنت في ضائقة مالية.. إذا كنت مسؤولا عن أهل تنفق عليهم!..

وضحك الدكتور محسن ضحكة ساخرة وقال وهو يمد إليها النظر:

- إنني لقيط!..

واتسعت عيناها دهشة وقالت وهي لا تدري أجدّ ما يقول أم هزل:

- ماذا!.. هل تمزح؟..

- ألا يعجبك أن أكون لقيطا؟.. إن هذه مزية كبرى لي.. أن لا يفرض علي أم أو أب..

- ولكن من رباك؟.. كيف تعلمت؟..
- تبناني إقطاعي كبير.. لعله كان والدي حقيقة ولكنه لم يعترف ببنـوتي.. حسنا فعل.. إنني أحيانا أتخيل والدي إلها أو شيطانا أو أنني خلقـت مـن العدم كآدم..
- ماذا أصابك الليلة؟.. إنني لا أصدق حرفا مما تقول..
- لن أجبرك على التصديق..
- لست معقولا الليلة!..
- وأنت أيضا لست معقولة..
- أليس من حقي أن أعيش في طمأنينة دون أن يلسنني الناس؟..
- الناس!.. ماذا يهمك من الناس؟..
- إنني أخشى الناس.. ويخيل إليّ أنهم جميعا يدرون بأمري.. إنني لا أقـوى على النظر في أعينهم خوف أن أجد فيها الاتهام.. وأخشى والـدي.. إنـه يقتلني لو علم بأمري..
- أتعرفين أين والدك الآن؟..
- في المقهى..
- إنّه في أحضان امرأة..
- ما أدراك؟..

- كانت عشيقتي وهجرتها..

وأحست فاتن بالقهر يمزقها ولكنها قالت:

- إنه رجل!..

- قيم الطبقة الوسطى.. إنها بدمك.. لماذا يحرمك مما لا يحرم منه نفسه؟.. إن لك الحق أن تستمتعي بجسدك وشبابك كما يفعل.. بل أنت حرة لا تخونين أحدا ويخون هو زوجته.. هذا هو الزواج.. نفاق يلائم الأوساط.. إنني أحب أن أوفر على نفسي وعليك هذا النفاق..

- لا يمكنك أن تخلصني من عُقد أبي وخوفي بمثل هذا القول.. لا يمكنني أن أقتنع.. إن هذا هو الحب لا يوفر لي الهناء.. ليس فيه انطلاق.. ليس فيه اطمئنان.. إنه يكبت نصف نشوتي ويسمم بالخوف باقيها!..

- تراجعي.. تستطيعين أن تتراجعي!..

ولم تعد فاتن تحتمل قهرها وعجزها فانفجرت بالبكاء:

- كيف تقول تراجعي؟.. هل يمكنني أن أتراجع؟.. هل التراجع سهل؟..

وأردفت وهي تمسح دمعها بأطراف أصابعها المخضّبة:

- إنني أحبّك.. إنني حامل..

وضحك الدكتور محسن وقال بلهجة

- لديك ثلاثة حلول إذا فرضنا أنك لست واهمة: تخلصي منه أو احتفظي بـه أو دعيه يعيش كما عشت لقيطا متحررا!..

وأكبت على صدره تبكي وتستدر عطفه:

- كيف تقول هذا؟.. ألا تعرف دمشق؟.. أتريد أن تجعلني محتقرة منبوذة من الناس؟..أليس لك عاطفة، أليس لك قلب؟..

وأجابها دون أن يتحرك:

- إنك تقتبسين جملا من الأفلام التافهـة.. وفـوق هـذا لا تـضعينها فـي موضعها.. ماذا يفيد من انتسابه لي؟..ليس لدي ما أورثه إياه..

- لا تورثه شيئا.. يكفيه أن لا يكون مطرودا مـن المجتمـع.. إبنـا غيـر شرعي..

- وماذا لو كان؟.. إن الأطفال غير الشرعيين ينمون إلى رجـال ممتـازين تخلصوا من كل القيود والقيم البالية.. إنهم لا يعترفون بسوى أم هي الحياة وأب هو القوة..

كان ينظر إليها باسما في سخرية وفي عينيه زهو الإنتصار.. إنه يعلم بأنهـا علقت بشص ذهبي، وأن هذه هي لحظته المباركة السعيدة التي يروي بها ظمأه للسيادة وهو يراها تتمرغ باكية على قدميه، يكبلها خوف الفضيحة وذبالة مـن

شرف.. إنه يعلم بأن تلك اللحظة المنتصرة لن تطول حين تؤمن تلك المـرأة بقيم طبقتها الجديدة، ومدى قوتها فتتحرر منه بل وتسود عليه..

ولكن فاتن لم تستسلم قط! ففي غضبها تسرق مفتاح المكتب من جيبه، وتطّلـع على ما يشغله.. فتقع بين أيديها أوراق خطيرة تخفيها ثم تهدده بها..

* * *